سرية مؤتة

وأول هذه الإعمال قد اشترك فيه متطوعًا بعد إسلامه بشهرين أو ثلاثة أشهر وهو سرية مؤتة التي سيرت إلى البلقاء.

وكان سبب هذه الغزوة أن النبيَّ عليه السلام أرسل وفدًا إلى ذات الطَّلح بمقربةٍ من الشام ليدعوهم إلى الإسلام: فقتلوا جميعًا وعدتهم خمسة عشر إلا رئيسهم نجا من القتل وحدَه ولعلهم أبقوا عليه عمدًا ليخبر بما رآه على ديدن المنكِّلين في إبلاغ مثلاتهم إلى من يهددونه بالتمثيل والتنكيل.

وأرسل عليه السلام الحارث بن عمير الأزدي رسولا إلى هرقل فقتله شرحبيل ابن عمرو الغسَّاني وهو في الطريق.

فأشفق عليه السلام من عقبى السكوت على كلتا الفعلتين وهو غير مأمونٍ... وعلم أنَّ قبائل الجزيرة العربية نفسها قد أذعنت للدعوة الجديدة، ومنها المتربِّص للغدر متى قدر عليه، والموهون الإيمان الذي لا يصبر على الإغراء والاستشارة. فإذا استضعف الغسانيون وجيران الغسانيين شأن النبيِّ وأفلتوا من جرائر فعلِهِ كتلك الفعلة اللئيمة جرَّأهم ذلك عاجلًا على اقتحام الصحراء للنقمة من المسلمين، فتهبُّ القبائل لنصرتهم في طريقهم وتمدُّهم الدولة الرومانية بالمال والسلاح تقريرًا لهيبتها في عيون أولئك البدو الذين جهلوا بأسهم ووهموا أنهم قادرون عليها! إذ لا مطمع للدولة الرومانية في مقاتلة المسلمين وإخضاع الجزيرة بغير هذه الوسيلة، ولا سبيل إلى تسيير الجنود

الرومانيين بنظامهم المعروف ومعداتهم الكثيرة لمنازلة المسلمين في عقر دارهم من وراء المفاوز والنجود، وتسييرهم بحرًا إلى شواطئ الحجاز لا يغنيهم عن الاستعانة بأناس من العرب وأهل البادية، وهم أولى أن يستعينوا على هذا المطلب بأتباعهم الأقدمين في تخوم الشام.

فلم يجد عليه السلام مناصًا من الثأر لأصحابه المقتولين، وجرد لتأديب المعتدين جيشًا صغيرًا لا تتجاوز عدته ثلاثة آلاف، وكان في ذلك الجيش خالد بن الوليد ونخبة من أقدم الصحابة عدها بالإسلام، فلم يتول خالد قيادته لأنه كان على الأرجح أحدثهم عهدًا بالدخول فيه، وتولَّاها زيد بن حارثه "فإن أصيب فالرئيس جعفر بن أبى طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة، فإن أصيب فليرتض المسلمون بينهم رجلًا فليجعلوه عليهم".

وأمرهم عليه السلام أن يذهبوا إلى حيث قتل الرسول فيدعوا القوم إلى الإسلام فإن أجابوا وإلا فالقتال، وأوصاهم: "ألا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأةً ولا كبيرًا ولا فانيًا ولا معتزلًا بصومعةٍ، ولا تقربوا نخلًا ولا تقطعوا شجرًا ولا تهدموا بناءً".

ولا شكَّ أنَّ هذا الجيش إنَّما كان بالوصف العصريِّ "حملة تأديبية وبعثة استطلاع" يقاد على هذا الاعتبار ومن أجل هذه الغاية، ولا يراد به بداهةً أن يحطم قوَّة الدولة الرومانية أو يفتح البلاد التي كانت يومئذٍ في يديها.

فمضى لهذه الوجهةِ حتى نزل معانًا وأقام بها ليلتين، وسمع المسلمون هناك أنَّ هرقلًا قد عسكر بها في مائة ألف من الروم ومائة ألف من قبائل لخم وجذام والقين وبهراء وبلي على أهبَّة اللقاء.

وقد يقع في الخاطر أن الروم علموا بمسير جيش المسلمين فأعدُّوا هذه الجحافل الجرارة ثمَّ سيَّروها إلى تخوم الدولة في مدى الأيام التي مضت من خروج جيش المسلمين إلى بلوغهم أرض معانٍ، وهو خاطر بعيد جدَّ البعد لما هو معلوم من صعوبة جمع الجيوش وتسييرها في مثل هذه السرعة، ولما يبدو من ضخامة هذه الجحافل بالقياس إلى القوة الإسلامية التي مهَّدوا للقائها، ولم يكن ليفوتهم أن يعلموا بحقيقَتِها لو أنهم تلقوا الخبر بخروجها ممن رآها.

والأرجح أن هرقل إنَّما كان في مجموعة هناك في زيارةِ الشُّكر التي نذر الله أن يؤديها إذا هو ظفر بالفرس وردَّ منهم صليب الكنيسة الكبرى الذي حملوه معهم يوم فتحوا بيت المقدس، وربَّما كان هرقل قد بارح بيت المقدس في ذلك الحين وتخلَّفت جيوش ركابه لأداء هذه الفريضة معه أو للقيام بمراسم الحفاوة في تلك الزيارة التاريخية.

ورأى المسلمون أنَّ مدَدَ الروم حاضر على مقربة منهم، وأنَّ الحرب بين معسكرين على هذا التفاوت البعيد عمل غير مجدٍ ولم يكن منظورًا ولا مقصودًا عند مسير الجيش من المدينة، فرجع بعضهم وتمهَّل الأكثرون منهم ليستأذنوا النبيَّ فيما يصنعون وغلبت حماسة الشاعر وحمية الشهيد على عبدالله بن رواحة فانتهر المتردِّدين والمثبطين وقال لهم: "يا قوم. والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة.

وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلَّا بهذا الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنَّما هي إحدى الحسنيَيْن: إما ظهور وإما شهادة".

فاستمعوا إليه ولم يشاءوا بأية حال أن يرجعوا قبل الانتهاء إلى مقصدهم الذي خرجوا من أجله وإبلاغ الدعوة إلى قاتلي الرسول النبويِّ وإبراء الذمة إليهم قبل القصاص، إن وجَبَ القصاص.

فتقدَّموا من معانٍ إلى مؤتةَ على مسيرةِ نحو ليلتين، وفيها حصن للغسَّانيين يقيم به أمير منهم في خدمة الرومان.

واحتمى الأمير الغساني منهم بحصنهِ ثلاثة أيام لعلَّه كان ينتظر فيها مددًا أو أمرًا من رؤسائه، ثم التقى الفريقان على مزرعة في جوار البلدة، فاستماتت من بقي من جيش المسلمين، وحاربوا على ما يظهر وهم مفاجأون، لأنَّنا لا نسمع في أخبار الوقعة بتوجيه الدعوة أو الإجابة عليها، ولأن قائدًا منهم أعجل عن طعامه ولم يذق القوت ساعات، فلما فوجئوا بالقتال لم تدع لهم المفاجأة من خطَّةٍ غير خطةِ الصمود للخطر والثبات في وجهه مخافة المصاب الأكبر في هذه الحالة وهو مصاب بالذُّعر والدهشة والملاحقة بلا هوادة.

وكأنَّما استحى القادة الثلاثة أن يرشَّحوا للموت ويرجعوا دون ابتغاء النجاة، فقاتل زيد ابن حارثة حتى قتل، وأحاط القوم بجعفر بن أبى طالب وهو يحمل اللواءَ ويثير من حوله نخوةِ المسلمين، فأنحوا عليه بالضرب الدِّراك حتى قطعت يمينه ثمَّ قطعت شماله ثم ضمَّ اللواء إلى عَضُدَيْهِ ولبث يناضل عنه إلى أن مات.

ودعي ابن رواحة إلى الرئاسة فجاءه ابن عمٍّ له بعرق من لحم وقال له: شدَّ بهذا صلبك فإنَّك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت. فأخذه من يده فاقتات منه نهشة، ثم سمع الحطمة في ناحية المعترك فألقاه من يده وجرَّد بسيفه وهو ينشد:

يـــا نفـــس إلا تقـــتلي تمـــوتي هــذا حمـام المـوت قــد صـليتِ

ومـــا تمنيـــتِ فقـــد أعطيـــتِ إن تفعـــلي فعلهـــما هـــديتِ

فطفِقَ يصول بين الصفوف ويهدِر بالشعر حتى قتل والمعركة في أشدِّهَا.

فما هي إلا لحظة حتى دبر المسلمون أمر الرئاسة بوحي البديهة ونور العقيدة وهداية الفداء التي تهتدي إلى المصلحة الكبرى وتغفل كلّ مصلحة دونها، وإذا باللواء يأخذه في تلك اللحظة ثابت بن أقرم من بني العجلان وينادى في أصحابه: "يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم"، قالوا: "أنت" قال: "لا ما أنا بفاعل". فاتفقت الكلمة على خالد بن الوليد فإذا هو يتولَّى القيادة في حينها ويصنع لساعتِه خير ما يصنع في ذلك الحين...

وخير ما يصنع في ذلك الحين هو الارتدادُ المأمون.

وهو أصعب من النَّصر في بعض المآزق. لأن النصر ميسور مع اجتماع العدَّة له واحتمال الشدَّة فيه، ولكن الارتداد المأمون غير ميسور لكلِّ من يريده وهو في أضعف الموقفين. إلَّا أن تكون له خبرة بالقيادة تكافئُ الرجحان في قوة العدو الذي يرتدُّ بين يديه...

obeikandl.com

وأول شيءٍ ينبغي أن يحتاط به لارتداده هو أن يوقع في روع عدوِّه أنه لا ينوي الارتداد بل ينوي الهجوم أو يقصد إلى الحيلة...

فصمد في الميدان حتَّى المساء...

ثمَّ بدل مواقف الجيش تحت الليل فنقل الميمنة إلى الميسرة ونقل الميسرة إلى الميمنة وجعل الساقَة في موضع المقدمَة والمقدمة في موضع الساقة، ورصد من خلف الجيش طائفةً يثيرون الغبار ويكثرون الجلبة عند طلوع الصباح، فلمَّا طلع الصباح على الفريقين إذا بكل طائفةٍ من طوائف الغسَّانين والروم ترى قبالتها وجوهًا غير الوجوه وأعلامًا غير الأعلام، وإذا بالجلبة مع هذا الاختلاف في الوجوه والأعلام.

توهَّم القوم أنَّ مددًا جديدًا أقبل على جيش المسلمين، وكانوا قد ذاقوا منهم أمر المذاق بغير مدَدٍ وهم مفاجَأُون، فلما ذهب خالد يدافع القوم وحاشى بجيشه لم يتبعوه حذرًا من الكمين وتوقُّعًا للإحاطة بهم من ورائهم، وأبلى خالد في هذه المدافعة والمخاشاة بلاءً لم يبله قط في غزواته الكبرى على كثرتها، فاندقَّت في يده تسعة سيوف ولم تصبر معه إلا صفيحة يمانية، وكان هذا التراجع المحمَّى بشجاعة المستميت غطاء صالحًا للجيش الصغير في مواجهة الجيش الكبير. فقفل إلى المدينة بسلام، وعرف خالد منذ ذلك اليوم بلقبه الذي أضفاه عليه النبيُّ وهو سيف الله، وعاد الناس يقولون مع النبي أنَّهم الكرَّار بإذن الله وليسوا بالفرَّار.

وقد سمعنا في عصورنا هذه بالألقاب الكبار تضفى على القادة أنهم نجحوا في خطَّة الارتداد لا محيص منها. فتلك هي السنة النبوية

تسبق النظم العصرية إلى تقدير القائد البارع بقيمة النجاح في ارتداده كما تقدره بقيمة النجاح في تقدمه وانتصاره. ولو أنَّ خالدًا ملكته فطرة المجازفة ولم تملكه فطرة القيادة البصيرة لساءت العقبى أيما سوء وتعرَّضت الدعوة الإسلامية لمحنة لا نعرف مداها الآن. ولربَّما تعرضت لهذه المحنة من جانب الجزيرة العربية قبل أن تتعرض لها من جانب الروم والغسانيين. لأن الجيش قد خرج من المدينة تأديبًا لأناسٍ متسلفين قتلوا رسولًا واحدًا أو قتلوا وفدًا لا تجاوز عدَّته خمسة عشر.

فإذا تورط هذا الجيش في الزحف حتى اصطلم كلُّه ولم يعد منه أحد، فكيف يكون وقع هذا التأديب المعكوس في نفوس البادية المتحفزة أو في نفوس أهل مكَّة ولما تسلم مفاتيحها للمسلمين؟ إنَّه ليبعث السخرية والاستهانة من حيث أريدت له الهيبة والمنعة، وإنَّه ليثير من الفتن ومساوئِ الظنون ما يصعب استدراكه في سنين.

ولكن الجيش قد عاد وأبلى في أعدائه وتسامعت الجزيرة بعدد الجحافل الهرقلية التي حسبتها مرصدَةً له ولم تقدِرْ على تمزيقِهِ ولا أصابت منه غير اثنَي عشر قتيلًا منهم القادة الثلاثة الذين نُدِبُوا للشهادة قبل خروجه، فالسريَّة إذن قد نهضت بأمانتها ووقع في نفوس المسلمين من فرط الثِّقة ببأسهم أنها كانت قادِرَةً على جهاد أعظم من جهادها وثبات أطول من ثباتها. وهى مغالاة في القوَّة والبأس خير من المغالاة في الضَّعف والخور، ولا ضرر منها ما شفعتها تلك البصيرة العلوية التي تضع الأمور في نصابها، وتصف النجاح بصفاته ولو بدَا الناس في ثياب الإخفاق...